دراسة نموذجية لجناح الأحداث

بقلم

ماهر كامل

ماجستير فى علم النفس

نقصد بجناح الأحداث الأعمال التى تعتبر جرائم لو صدرت عن فرد بالغ وبهذا ينبغى أن نفرق بين الأعمال الجانحة وبين الجرائم فالجريمة إنما تصدر عن شخص عاقل مميز وقام الدليل الاعتبارى على أنه يستطيع أن يفرق بين الخير والشر . أما الطفل فلا يمكن أن نحكم عليه بأنه يتمتع بهذه القدرة . وقد اتفق على ذلك علماء النفس وعلماء القانون معاً . ولكن الذى اختلفوا فيه هو تحديد السن التى يقوم فيها الدليل الاعتبارى على التمييز بين الخير والشر .

من هذا نتبين أنه لا يحق لنا أن نطلق على الطفل السارق مثلا أنه مجرم criminal وانما نقول إنه طفل جانح delinquent .

ونظراً لأهمية وخطورة موضوع جناح الأحداث قد اتجهت مباحث الكثيرين من علماء النفس والقانون فى العصر الحديث إلى دراسة هذا الموضوع دراسة علمية تحليلية واستقرائية لبيان أهم العوامل النفسية والمادية والاجتماعية وأحسن الطرق لعلاج هذا الانحراف النفسى .

ولقد رأينا أن نوقف القارئ على حالتين أو ثلاث من دراسة بعض العلماء البارزين فى هذا الميدان حتى تكون سراجاً يلقى ضوءاً على أحسن الطرق لمعالجة هذه الدراسة . وفيما يلى نذكر هذه الحالات مع التعليق عليها .

والحالة الأولى التى سنعرضها الآن حالة ولد فى الثامنة عشرة أتت به أمه إلى الأستاذ ايكهورن Aichhorn . وقد كانت نصيحته الأولى أن يفحص الطفل بواسطة بعض الأطباء والمحللين النفسانيين . ولكن الأطباء لم يجدوا أى دليل على اضطراب عصبى وأرجعوا الكسل البادى عليه والسلوك الاعتدائى الذى تشكو منه الأم إلى صراع بين أفراد العائلة . وكانت الأم أرملا ، مات زوجها الذى كان رئيس عمال فى مصنع كبير منذ سنين عديدة . وبعد موته حصلت الأم على عمل فى

أحد المكاتب كان بالكاد يكفى نفسها وأطفالها . وكان الموقف قد بدأ فى التحسن خلال السنة الماضية لأن الابنة الكبرى أخذت تعمل . وهذه الفتاة تصغر الولد الجانح بسنة واحدة . ولما تعلمت فن الحياكة عينت فى مشغل للحياكة والتطريز . ولقد كان هناك ثلاثة أطفال فى العائلة وكلهن بنات أعمارهن ١٥ ، ١٣ ، ١٠ سنوات عند ما بدأ جناح الولد فى الظهور .

وعند ما جاءت الأم بولدها بعد فحص الطبيب طلب منها الأستاذ ايكهورن أن تنتظر ريثما يرى الولد وحده . كان يبدو على الولد مظهر الأنثى ، فهو خجول مرتبك ، وظل فى أول الأمر يبدى تمنعاً فى الاتصال بالاستاذ ايكهورن . وكان من الصعب أن يصدق المرء أن هذا الولد يمكن أن يسبب كل هذه الأعمال الاعتدائيه التى نسبت إليه . ولهذا كان لا بد أن يتجه التفكير إلى اعتبارها ثورات انفعالية مؤقتة وليست تعبيراً عن طبيعة حيوانية دافقة . وعرف فى أثناء الجلسات المتكررة مع الولد أنه أكمل دراسته حتى السنة السابعة تلاحقه التقارير الحسنة . ولكن التصميم الذى كان يعزم عليه من حيث إكمال عمله فى المدرسة الثانوية توقف بوفاة والده . وأراد بعد هذا أن يعمل مساعداً لأحد الرسامين ولكن أحدا لم يساعده فاضطر إلى قبول عمل بسيط كخادم فى مخزن أدوية حوالى ديسمبر من نفس السنة . ولكن تلهف أمه على أن يتعلم حرفة ما جعله يترك هذا العمل بعد أسابيع ليشتغل مساعداً لنجار . وأحب الولد العمل الحالى وظل أكثر من عام اكتشف بعده أن صاحبه ليس مرخصاً له بتمرين المساعدين ، وضايقه هذا إلى حد أنه ظل بعض الوقت يرفض دخول حانوت أى نجار . وأخيراً حصل عن طريق أمه على عمل من هذا النوع ولكن المصنع أفلس بعد تسعة أشهر . وهنا كان قد مل النجارة تماماً ، وحاولت أمه استخدام كل الطرق من الكلام المعسول إلى الضرب لعله يغير رأيه دون جدوى ، لم تعد لديه الآن رغبة فى تعلم حرفة ، وبعد أسابيع من البحث عن عمل اشتغل خادماً للمرة الثانية فى مخزن للورق . ثم طرد بعد ستة أسابيع لأنه رفض أن ينفذ أمراً فيه تحقير له . وهنا قررت الأم ألا تعوله فتعهده أحد أقاربه . وقد ترك منزله ليعمل « صبياً » فى طاحون . ولكنه عاد بعد ثمانية أسابيع . وهنا خلافاً لما حدث فى الماضى حيث كانت فترات التعطل قصيرة ظل الولد ستة أشهر عاطلا ، ثم جئ به بعد ذلك إلى الأستاذ ايكهورن بعد أن فشل فى عمل كساع فى مصنع للتجفيف .

وقد صرح الولد بأنه لا يريد أن يكون عبئاً على أمه ما دام قوياً صحيح الجسم ، ولكنه رفض أن يكون عاملا بسيطاً كما أرادت أمه . وهو مع هذا مستعد أن يقنع بتعلم النجارة إذا احتسبت له السنة التى قضاها سابقاً ولكن لم يكن هناك من يحل هذه العقدة . وقد ظل أثناء تعطله يعين أمه فى الأعمال المنزلية ويجد فى هذا متعة واضحة خصوصاً غسيل الأطباق ومسح الأرض . وكان يقرأ كثيراً أثناء وقت فراغه يقرأ كل ما يقع بين يديه دون تفرقة أو تمييز . ولعله اضطرب عند ما اتجهت المناقشة بينه وبين الأستاذ ايكهورن نحو علاقاته بأعضاء العائلة . كما بدا على الأخص أنه يكره أخته الكبرى ، كما وأن ثورات الحنق والغضب التى كانت تشكو منها العائلة كانت تتجه على الأخص إلى هذه الأخت . وما من شك أنه كان يحس الإهانة وجرح الكرامة عند ما يرى أخواته يقللن من شأنه ويضحكن منه . يضاف إلى هذا أن شقيقته الكبرى كانت قائدة هذه الحملة الساخرة ، بل وكانت الأم — على عكس ما كان ينتظر منها — تقف فى صف بناتها . وقد مضى الولد يفسر فى كثير من الانفعال أن الولد فى العائلة يجب أن يكون من الرأى ما يمنح للبنات . وكان يحب أمه أكثر من الكل . يعقبها البنات بترتيبهن تصاعدياً . أما الأخوات فكن على خلاف تام فى المظهر ، فالكبرى كانت أطول منه ، ذات وجه ضيق طويل ، وعينين زرقاوين ، وشعر أشقر ، وعلى العموم فهى تشبه الأم . ولكن الأختين الأخريين كانتا أقرب إلى الأب . وكانت الأم وبناتها متدينات إلى حد كبير ، أما الولد فكان يحتفظ بعدة آراء حرة لم يكن يتناقش فيها مع عائلته . وكان اتصال العائلة بالكاثوليك المتطرفين ، وكثيرا ما أخذوه معهم إلى اجتماعات تضم هذه الطائفة دون أن يعلموا مدى الألم والملل الذى يسببه هذا له . وكان يحب أن يزور إحدى صديقات أمه لأنه قابل هناك فتاة أعجبته كثيراً ولو أن من حولها لم يكونوا يقدرونها . وقد شعر بالحرج عند ما سئل ما إذا كان قد أحب فتيات قبل هذه الحالة فقال إن هذا حدث فى سن الثالثة عشرة حينما أغرم بزميلة لأخته الكبرى كانت تقضى فى منزلهم وقتاً طويلا . وهو يذكرها على أنها تشبه فى مظهرها أخته إلا أن شعرها أدكن قليلا وعينها تميلان إلى اللون الرمادى . وعند ما سئل عمن يحبه فى الوقت الحاضر احمر وجهه ثم تحدث بحماسة عن البنت التى سبق ذكرها . هل حدث مرة أن قبلها ؟ « إن الفتى لا يفعل ذلك » . وكان فى إجابته شديد الخجل والحرج . ولقد كان وصفه لها يجعلها على عكس أخته

تماماً ولو أنه لم يكن يحسن هذا ، فلقد كان شعرها أسود وعيناها داكنتين . وعندما سأله الأستاذ ايكهورن عما إذا كان يعرف أحد فى طفولته كانت لديه مثل هاتين العينين والشعر ذكر أخته الصغرى . أما عن طفولته فقد تذكر عدة حوادث أولها عن « المحفوظات » والقطع التى كان يلقيها فى العطلات والأعياد وكانت هذه عادة مهمة فى العائلة . ولقد حدث يوماً عندما كان صغيراً جداً أنه تسابق مع أخته فى تسميع بعض قطع وتحيات خاصة بعيد الميلاد . وكان الأب قد وعد أن يقدم كتاباً مصوراً لمن يتفوق فى هذا التسميع . وتفوقت الأخت فنالت الجائزة . وشعر هو بغضب شديد لدرجة أنه مزق الكتاب . ومن عجب أن وقائع هذا الحادث كانت مضطربة مقلوبة الوضع فى ذاكرته فقد بدأ بأن قص أن والده ضربه ضرباً شديداً لأنه طفل شرير . ثم ذكر بعد هذا أنه وأخته كثيراً ما لعبا لعبة الأب والأم ، وأن أخته الصغرى كانت دائماً طفلتهما فى هذه اللعبة .

وكانت هذه نهاية المقابلة . فدعيت الأم بعد ذلك لمقابلة الأستاذ ايكهورن . كانت غاضبة حانقة لأنها تركت فى الخارج تنتظر وقتا طويلا ، وقد أبدت مباشرة عدم فهمها السبب فى كل هذه الإفاضة فى الحديث مع الولد بالرغم من أن الأستاذ المعالج يعرف من قبل أين تقع المتاعب . وكان واضحاً أنها تشفق على سلطتها كأم من أن تتزعزع .

كانت امرأة نحيفة القوام متوسطة الطول ذات نظرات حادة وملامح متوترة . وكان مظهرها يدل على حيويتها الزاخرة التى لا تقف عند عقبة . وكانت الحياة قد عاملتها بقسوة فى طفولتها ، يضاف إلى هذا أن الحياة الزوجية ولو أنها هيأت لها الاستقرار الاقتصادى إلا أن علاقتها بزوجها لم تكن مما يشبعها ويرضيها . وبعد موته لاقت صراعاً عنيفاً فى إطعام أطفالها الخمسة وإعالتهم . أما البنت الكبرى فكانت تعطى كل ما تقتصده أو تربحه لأمها . ولولا المتاعب التى صدرت عن الولد لسارتا فى طريقهما بشكل يبعث على الإعجاب . وكانت الأم تحس أن زوجها لم يفهم مطلقاً طبيعتها الدفينة ورغباتها الحقة العميقة . لقد كان شخصاً مرحاً ينظر إلى الحياة بمنظار براق . ولم يحدث بينه وبين زوجته عراك فعلى واضح ولكن الزوجة تراجعت شيئاً فشيئاً عن محيط زوجها . « كان على دائماً أن أعتزل الحياة . كانت تربيتى ونشأتى الدينية دقيقة متطرفة . وعندما اكتشفت بعدئذ مدى تعارض هذه المبادئ مع الحياة الواقعية عانيت طيلة سنين عديدة وأخيراً وصلت إلى حل

يوافق نفسى الثائرة » ولقد كانت تتحدث عن ابنها دون اهتمام كما لو كان قد أصبح لا يعنى بالنسبة له شيئاً . انه ليس رجلا وانما مجرد صبى غبى عنيد ، يظن أنه يعرف الحياة ويخبرها . إنه يود أن يسيطر على أخواته ، وطبيعى ألا يحتملن هذا بل ويضحكن لأنه يتحدث فى حمق فيخرج عن طوره ويهاجمهن كحيوان مفترس ، وخاصة كبراهن . ولو ترددت قليلا فى إخراجه من المنزل فلا بد أن يحدث شىء مرعب . وهو يطيعنى ولا يجرؤ أن يتحدانى لأنه يعلم حق العلم أننى سأجلده ، حتى ولو كان فى الثامنة عشرة . وهو فى تصرفاته لا يزيد عن طفل صغير ، فإذا انتهت الحالة التى سببت ثورته ، راح يساعدنى فى المنزل فى طاعة ووداعة . وهو فى الحق ولد نظيف جداً يحب الإتقان ، وإنك لتجد غرفته أكثر تنسيقاً من غرف أخواته . وهو يثور ثورة جانحة لو أفسدت إحداهن نظام غرفته . ومع هذا فهو لا يهتم مطلقاً بنفسه وكثيراً ما اعتنى برقبته وأذنيه لأطمئن إلى أنها نظيفة . ولكنه يقف أمام المرآة ساعة ينظم ربطة رقبته أو يمشط شعره . وطبيعى أن يزعج هذا أخواته فهو لا يفكر إلا فى نفسه وهو فى الصباح لا يود أن يستيقظ أو ينظف حذاءه إذ ليست له روح المبادأة فى العمل . وإنى لأدهش كيف يظن شاب فى هذه السن أن العمل المنزلى أو قراءة الكتب مما يليق به . ينبغى أن يحصل على عمل ثابت يدر عليه مرتباً ، سوف لا أعوله بعد هذا . ليست لدى نقود ، وعليه أن يفهم أننا لن نعمل كعبيد من أجله . إنه لا يعرف حتى الأمانة فإذا ما أرسلته إلى المخزن ليشترى شيئاً غشنى فى مبالغ ضئيلة ينفقها فى الشراب كتلميذ المدرسة . إننى بالاختصار لن أحتمل هذه الحال وعليه أن يعمل ليحصل على قوته كأى شخص آخر .

ماذا نفعل إزاء هذه الحالة ؟ . قد نقول إننا وقد سمعنا كلا الجانبين ينبغى أن نأت بالأم والولد سويا ، ونحاول أن نقرب وجهتى النظر فنختط طريقاً وسطاً ، ونشجع هذا أو تلك ، ونحثهما على أن يكونا أكثر تسامحاً وهدوءا . إن مثل هذا التصرف هو فى عبثه وعدم جدواه كمحاضرة خلقية عن جناح الأحداث . . ليس عملنا أن نهيئ السلام ولا أن نحاكم الولد أو أن نحكم على الأم وإنما أن نحل هذه المشكلة . علينا أولا أن نكتشف السبب الذى دعا لهذا التصرف المضاد لروح المجتمع عن طريق تفهم الموقف النفسانى الذى سببه وكل ما يبدو لنا لأول وهلة ، وفى الوقت الحاضر أن الاستجابات العاطفية لهذا الولد هى الشىء الذى يهمنا ولذا يجب أن نفحص الحقائق من الناحية الشخصية ، متحيزين فى هذا إلى جانب الولد . فما

دمنا نعرف أن كل الظواهر النفسية محددة من زمن مضي وتحت ظروف قديمة فلنقل لأنفسنا إنه على حق . ويجب أن يكون هناك من الأسباب ما يفسر هذا السلوك . ترى أي شيء يمكن أن نكسبه إذا صدمنا بسلوكه أو انضممنا إلى صفوف أولئك الذين يتألمون لما يفعل ؟ إن الحكم عليه من الناحية الخلقية لا يمكن أن يساعدنا .

إن أسوأ ما يميز هذا الولد عنفه وحدة تصرفاته فى المنزل وعلى الأخص ضد أخته الكبرى وهو فى مقدمة المسائل التى تهمنا . إننا سنترك جانباً كل الاعتبارات الخلقية وننظر إلى هذه الحيوانية وحدها بعيداً عن الهالة التى قد تلتصق بها ، فنرى أنها مظهر تعبيرى لحالة كامنة وقتا طويلا . وبطريقة أخرى يمكننا أن نقول إن انتاج الطاقة النفسية لم يعد يظل ضمن الحدود الاجتماعية ، وهذه الحالة قد يكون سببها واقعاً فى تركيب الولد نفسه constitutionally determined . فإذا سلمنا بهذا لم يعد هناك ما نخشاه من هذه النقطة وأصبح أمامنا فقط مسألة كسل الولد لنعالجها . ولكن لا يمكن أن نقول إن هذه الحالة ترجع إلى التركيب فحسب لأنه ليس هناك فى الولد ما يتمشى مع هذا الاعتبار ويجعله واحداً من هذا النوع ، لا فى المظهر الذى بدا به ولا فى الوصف الذى أدلت به الأم . وإن ما قاله الولد يبين أن اعتداءاته نتيجة ثورات مؤقتة مصحوبة بانفعال شديد وهى فى هذا الوصف تستحق عناية خاصة . إننا لنجد الاعتداء متجهاً خاصة إلى الأخت الكبرى فى الغالب ولدينا غير هذا من الأدلة ما يحملنا على الاعتقاد أنه يكرهها . وقد تدلنا إحدى ذكرياته منذ الطفولة على أساس هذه الكراهية ، فهو فى طفولته المبكرة قد عانى آلاماً نفسية شديدة ، خصوصاً إذا تذكرنا قصة الكتاب المصور . وتدل خبرتنا فى علاج الأمراض العصابية عن طريق التحليل النفسى على أن مثل هذه الذكريات هى فى العادة بمثابة واجهة تحجب كثيراً من الذكريات التى تماثلها وتبرز إلى الشعور كلما تقدم العلاج فى الخطوات . إننا لنرى أن الأب كان بعيداً عن الكياسة فى تربيته لابنه ، فهو يستهتر بمشاعره ولا يفهم مطلقاً — كما يبدو فضلا عن هذا — أن هناك نوعاً من التمييز والتدليل للبنت الصغيرة . وإذن فيمكننا أن نقول إن كراهية الولد لشقيقاته كان أساسها المضايقات التى أحسها فى طفولته وأنه كره أخته الكبرى بشكل خاص لتحيز أبيه لها . والحق أن ملابسات هذه العائلة ليست شاذة أو غريبة بالنسبة للعائلات الأخرى فالأب يفضل البنات عن الولد بينما الأم ليس لها اتجاه عاطفى

معين ، ولذا يحرم الولد من كل شيء . وكما يمكن أن ينقلب الأمر ضد البنات كما حدث ضد الولد .

وعند هذه النقطة نجد من المستحسن أن نسوق عدة ملاحظات عامة :

إن أى شخص له اتصال بالأطفال ، سواء كأب أو مدرس ، يجد نفسه باستمرار فى مواجهة ظاهرة لا يمكن أن يمحوها مهما بذل من مجهودات . إن الاتساق فى جماعة الأطفال لا بد أن يشيع فيه الاضطراب والفوضى متى استثيرت مشاعر الحسد والغيرة داخل هذه الجماعة . ويقول علم التحليل النفسى إن كل طفل يعتبر أشقاءه وشقيقاته منافسين له فى هذا الصراع العنيف لاحتلال المكان الأول فى حب الأبوين . وإن هذا التنافس ليس بذى خطر على نمو الطفل إذا عامل الآباء كل موقف كما يحدث بحكمة وعقل وتدبر . والكثير من الأمهات يفعلن ما هو صحيح وواجب بالفطرة وهناك الكثيرات يخطئن باستمرار دون أن يدركن مصدر الخطأ . وفى هذه الحالات الأخيرة كثيراً ما يحدث أن تفتر العلاقة بين الاخوة والأخوات حتى عند ما يكبرون ، وكلما خرجت الظروف عن الاعتدال والتوسط زاد احتمال انتهائها بحالة جناح . إن موقف هذا الولد لا بد وأنه كان سافراً فى التحيز للشقيقات ، وهو بالإضافة إلى أب لا يحن أو يعطف عليه وجد أما ذكية ماهرة ولكنها جافة قاسية . ومع هذا ، فنحن سوف لا نقنع باعتبار معاناته من نقص الحب والحنان كسبب وحيد لحالة الجناح . لماذا ؟ لأن الحادث الآخر الذى ذكره عن طفولته يهدم هذه النظرية كما سنبين .

لقد عرفنا أن هذه الأخت التى يكرهها الآن كانت يوما ما رفيقته المحبة فى اللعب وما كان يمكن أن يحدث هذا لو كانا متنافسين على طرفى نقيض ، وطبيعى أننا لا نعرف الوقت الذى استمرت فيه هذه العلاقة بين الطفلين . ولكن لنا أن نقول عن ثقة إن عدداً لا يحصى من الذكريات ، المشابهة لتلك التى سبق ذكرها ، تقع خلفها . هل هذه الحقيقة يمكن أن تساعدنا على كشف سبب آخر للجناح ؟ يمكن أن نضع أساسا للعمل افتراضنا أن كراهيته لأخته قد حددتها رابطة جنسية شعورية إزاءها conscious erotic tie وقد يكون عدم إلمامك بالتحليل النفسى داعياً لدهشتك إذ تسمعنا نتحدث بوجود رابطة جنسية فى وقت لا تبدو فيه سوى مظاهر الكراهية . قد تدهش إذ ترانا نبدأ بهذا الفرض المشكوك فيه ، خصوصاً وأنت تدرك أن الخبرة فى ميدان التحليل النفسى ، تعلمنا أن ما يقوله

المريض للمرة الأولى كثيراً ما يتحول عنه أو ينقضه تماماً كلما اتسعت المادة وتعمقت أثناء السير فى التحليل ولكن لا تنسى بالإضافة إلى هذا أن عملنا يختلف عن عالم التحليل النفسى . إننا لا نستطيع أن نحتمل التأجيل والانتظار إذ تطلب منا نتائج سريعة ، ولذا نجد لزاماً أن نكون صورة عن الموقف بعد عدد قليل من المقابلات ، وإننا لندرك أثناء هذا أن نتائجنا لن تكون كلها صحيحة . وأنه ليس أمامنا سوى نتيجة العلاج لتبين مدى نجاحنا فى التشخيص ووضع الفروض . ويمكننا أن نقلل من احتمالات الفشل بالدراسة الدقيقة للمادة التى لدينا عن الحالة .

وقبل أن نعود للحالة التى نحن بصددها نود أن نوضح ما نعنيه بالروابط الجنسية . إننا محقون فى القول إن الولد والبنت كانا يشتركان فى الإحساس بخبرة حادة جارفة فى أثناء تمثيلهما فى اللعب دورى الأب والأم . كما ندرك تماماً أن هذه اللعبة التى يغرق فيها عدد كبير من الأطفال ليست دائماً بريئة طاهرة الذيل أو أنها تنتهى دون حدوث ضرر ، فالأطفال يسندون إليها أكثر مما نود دائماً أن نفترض ، وكثيراً ما تنتهى هذه اللعبة بتفحص الطفل الأعضاء الجنسية للآخر ، وبذلك يرضى النزعة للاستطلاع . بل وكثيراً ما وجدنا فى أثناء ملاحظتنا لهذه اللعبة أن الأطفال يمثلون فيها ما سبق أن لاحظوه فى حالة الأبوين . وواضح أن ظروف المعيشة المزدحمة كثيراً ما تهيئ للأطفال الفرصة لرؤية العملية الجنسية بين الأب والأم . وما من شك فى أن ألعاب الأطفال التمثيلية من هذا النوع هى مصدر للنشوة ، ولا يمكن أن تستخدم كوصف لفظ « جنسية » إلا إذا عنينا المعنى الواسع . وواضح أن الذكريات التى تظل فى الأذهان عن هذه الخبرات تربط المشتركين فيها برباط وثيق ، وكلما زادت حدة الانفعال زادت الرابطة وثوقاً . وحتى لو لم نكتشف أمر الصغار وهم يمارسون هذه اللعبة فيؤنبون بشكل سافر فإنهم ليعلمون تمام العلم أن ما يفعلونه ويحسونه فى هذه المناسبات خطأ بلا شك أو ذنب يستحق العقاب ، وهم يدركون الفرق بين هذه الألعاب التى يخترعونها لمتعتهم الذاتية وبين تلك التى تظفر بتأييد المحيطين بهم . فإذا كان الدافع نحو هذه المتع الغريزية أقوى من الخوف من العقوبة ، استمرت هذه الألعاب والعكس صحيح . والأطفال فى هذه المرحلة المبكرة لا يستطيعون أن يحلوا هذا الصراع شعورياً بإقصاء هذه المتع المحرمة . ولذا يحاولون أن ينسوا هذه اللعبة وكل ما يرتبط بها . ويدخل ضمن هذه الأحاسيس التى تستثار فيهم نحو الشريك الآخر فى التمثيلية ، وهى أحاسيس تمثل

أشد الخطر بالنسبة للإغراء المتوقع . وهكذا يأتى الكبت فينقطع مجرى هذه الأحاسيس من تلك الطريقة للتعبير ولكنها تظل مكبوتة فى اللاشعور . وبفقد الضابط الشعورى تخضع هذه الأحاسيس لتأثير قوى أخرى فى اللاشعور وتكون النتيجة ما يسميه التحليل النفسى « التثبيت » fixation . وهكذا يمكننا أن ندرك بسهولة أن هذه الروابط نحو الطفل المشارك فى اللعبة لا تنقطع بل يحل محلها رابطة جنسية لاشعورية Unconscious erotic tie ومما يقلل من خطر انتقال هذه الرابطة إلى ميدان الشعور أن ينقلب الإحساس تماماً إذ تجد علاقة الحب تعبيراً شعوريا يتمثل فى الكراهية . وهنا فى حالة الولد الذى نحن بصدده لا زال ينقصنا الدليل على أن كراهية الولد لأخته قد اتخذت هذا الطريق فإذا قلنا إنه كان يمكن أن تنتج هذه الكراهية من ألعاب الطفولة فكأننا نسير إلى جانب ما يراه الباحث فى الأمراض العصابية . ولكن طفلنا هذا هو حدث جانح وليس مصاباً بمرض عصابى . وإذن فلنبحث عن مادة أخرى نقوى بها ما افترضناه . يرى ايكهورن هنا أنه من الأوفق أن نترك الحالة مدة أخرى ريثما نبحث نظرية ثانية .

إن كلمة البلوغ ليست جديدة عليك . ولكن الاعتقاد الشائع أنها تشير فقط إلى التغيرات الفسيولوجية أى نضوج الأعضاء التناسلية فى كلا الجنسين . ولكن عدداً كبيراً من الأفراد يظلون غير قادرين على أداء ما يتطلبه التناسل بالرغم من نمو الأعضاء التناسلية نموا كافياً . إنهم ليسوا بقادرين على الإحساس بالتجاذب الضرورى نحو أفراد من الجنس الآخر ، أو قد يكون تركيبهم النفسى مما يجعلهم يتطلبون ترضية جنسية غير الطريقة الطبيعية المألوفة . وقد بين لنا فرويد أن فهم فكرة البلوغ لا بد يتطلب إدراك المجال النفسانى . وهو فى دراسته لنتائج الاضطرابات التى قد تكتنف النمو الجنسى قد بين لنا حقيقة هامة فى الوقت الحاضر فى مرحلة المراهقة . يجب أن يضع الصغير جانباً روابط الحب وسط العائلة لتحل محلها روابط أخرى خارج هذه الدائرة . فإذا استخدمنا اصطلاحات التحليل النفسى قلنا إن روابط الليبيدو أثناء الطفولة المبكرة أى infantile libidinal ties يجب أن تتفكك لكى يتحرر الليبيدو ليجد مصادر أخرى لتوثيق العلاقات خارج العائلة . فإذا كانت الروابط الأولى ذات قوة كبيرة أى حدث لها ما أسميناه « التثبيت » أصبح من الصعب أو المستحيل التحرر منها عند المراهقة . وواضح من دراسة حالة صديقنا هذا أن علاقته بالجنس الآخر توحي بأن نجاحه فى هذا العمل الذى ذكرناه ،

إنما هو نجاح جزئى وما من شك فى أنه غير طبيعى أن يقول فتى فى الثامنة عشرة عند سؤاله عما إذا كان قد قبّل فتاة . « إن الفتى لا يفعل هذا » ثم إن أقواله فى صدد الفتيات اللاتى أغرم بهن يستثير اهتمامنا . إن البنت الأولى التى أحبها فى سن الثالثة عشر كانت فى نفس سن أخته الكبرى كما كانت صديقتها وزميلتها فى الدراسة . وكان الاختلاف بين البنتين فى المظهر الخارجى والسلوك ضئيلا جداً . وإذن فقد اتجه حبه هنا إلى الأخت أيضاً ، ولو أنها لم تكن بالضبط الأخت . أما تلك التى استثارت حبه الآن فليس لها أى اتصال بأخته ما عدا نوع العمل الذى تمتهنه ؛ ولكنها فى المظهر عكسها تماماً . هل يدلنا هذا على شىء ؟ إننا لنعلم أنه كنتيجة لكبت اللعبة المحرمة أثناء الطفولة قد أصاب الكبت كل ما يمت إليها بصلة . كما نعرف أيضاً أنه لكون رابطة الحب نحو الشريك فى هذه اللعبة لم تتغلغل حقاً بحيث يتحرر منها الولد لا يزال هناك خطر مستمر من عودتها فى عالم الحقيقة . وواضح أن هذه الفورة الدافعة التى تحدث فى الليبيدو وفى مرحلة المراهقة تهيئ للولد للمرة الأولى أن يحقق رغباته الجنسية ، وبذا يضيف إلى خطر عودة الأخت لتكون مصدر الحب ومثير هذه الرغبات . ومما يقلل هذا الخطر أن تقوم الكراهية الشعورية لتسد الطريق أمام هذه الرغبات . والآن لعلنا أقدر على فهم السبب الذى من أجله كان على الليبيدو المكبوت أن يتحول إلى كراهية . وإذن فالكراهية الشعورية هى بمثابة صمام الأمن . وعليها أن تستمر طيلة وجود الرابطة الجنسية اللاشعورية وذلك لتمنع اندفاعها من اللاشعور . وقد يكون هناك عامل آخر ويساعده على أن يمحو سيطرة الأخت كمصدر للحب الجنسى . فهل هو موجود كذلك ؟

لقد علمنا فرويد أن فورة الليبيدو فى مرحلة المراهقة يصحبها موجة غاية من الكبت وهذا الكبت أقوى فى حالة البنين منه فى حالة البنات . ولكن فى كلتا الحالتين نجده يتجه إلى روابط الحب المبكرة محاولا أن يقصيها كروابط جنسية . وهنا يقول علم التحليل النفسى أن حاجزاً قد أقيم ضد المحرمات incest barrier ويتضح من أقوال الولد فى هذه الحالة مدى تأثير هذا الكبت . ويمكننا أن نلمس أيضاً كيف تكون هذا الحاجز فى سن الثالثة عشر حيث استبدل الولد بأخته فتاة تشبهها . بل إن اختياره الحالى لمصدر الحب لهو أكثر تمشياً مع ما نقوله . إن الحاجز الذى نحن بصدده قد امتد إلى ذلك النوع الذى تمثله الأخت جاعلا إياه مغلقاً من الناحية الجنسية . ولكن الفتى لم يبرح دائرة العائلة بعد إذ أن مصدر الحب

الأخير يشبه الأخت الصغرى التى يربطها بها رابطة أضعف .

دعنا نلخص الآن ما وصلنا إليه من الملاحظات لكى لا يضيع أثر عملنا . . إننا نبحث حالة ولد فى الثامنة ينسب إليه سلوك اعتدائى فى المنزل وخاصة ضد أخته الكبرى ، وكان علينا أن نضع جانباً فكرتنا الأولى التى تفترض أن التميز الذى أبداه الأب نحو البنت الكبرى والاهمال الذى عاناه الولد فى الطفولة هما السبب فى هذا السلوك العنيف ، وهكذا تقودنا إحدى ذكريات الطفولة إلى الاعتقاد بأن هذا الاعتداء مؤسس على رابطة جنسية لاشعورية نحو الأخت . وكان ما ينير لنا السبيل للأخذ بهذا الافتراض ، تشابه هذه الحالة بحالة مريض بمرض عصابى ، ولكننا رأينا من الحقائق ذات الدلالة ما يجعلنا نرتكن إليها . أولا : إن علاقة الولد بالجنس الآخر تلاقى تعطلا واضحاً . ثانياً : أنه اختار مصدراً للحب ما يضاد أخته إلى مصدر مستقيم . ولقد أخذت هذه الحالة بالذات لأنى أرى أن فى عرضها عليك ما يجعلك تلم بنقاط عديدة فى علاجها . إنها تريك إلى أى مدى ينبغى أن نتعمق فى البحث عن الأسباب الأساسية للجناح وكيف تتبع كل دليل بين أيدينا دون أن ننتظر العون من الطفل . إن عملنا هو أن نضع أمامنا صورة للحالة تقلل من عنصر الشك الذى لا بد من وجوده . فإذا تذكرت أن معرفة سبب الجناح قد رأينا أنها فى نفس أهمية اكتشاف الظروف التى قادت إلى الجناح الكامن وضح أمامك أننا قد حققنا جزءاً من غرضنا . إن الرابطة الجنسية اللاشعورية هى إحدى الظروف النفسية التى تبنى ميكانيزم لا يحتاج إلا إلى استثارة بسيطة لتدفعه للحركة والعمل .

لنستمر الآن فى بحثنا ونناقش ملاحظة وردت فى حديث الأم عن ابنها : « إنه ليس رجلا بل مجرد ولد غبى عنيد » هل يفيدنا هذا فى البحث ؟ علينا أن نقارنها بجملة أخرى « أنه يطيعنى ولا يجرؤ أن يتحدانى لأنه يعلم حق العلم أنى سأجلده ولو أنه فى الثامنة عشر . . ثم . . . وبعد قليل . . . بعد انتهاء ما هو بسبيله يعود مطيعاً ليناً فينظف المنزل بكل عناية .

إننا نشعر بالميل للموافقة على أنه ليس رجلا . فما من شك أنه لا يتصرف تصرف الرجال ولكن هل هو حقا كما وصفته أمه غبى عنيد ؟ إن أعماله تشير إلى اتجاه آخر . إنه يقوم بالعمل المنزلى الذى يسند عادة إلى السيدات ، كما أنه لا يبدى أى اعتراض على هذا الوضع . بل الحقيقة أنه يشعر إزاءه بلذة واضحة .

ثم إن غرفته أكثر تنظيما وتنسيقاً من غرف أخواته ، فضلا عن أنه يقف أمام المرآة ساعات يمشط شعره أو يرتب ربطة رقبته . وهو بعد كل هذا خجول سريع الخوف كالبنات . وهو بالاختصار يبدى كثيراً من صفات الأنثى التى تتمشى مع هيئة العامة . ولقد يكون هذا عاملا هاماً يضاف إليه ما رأيناه من نمو الولد دون أن يرى الأب فضلا عن إحاطته بالإناث . ويلاحظ أنه لم يشر أدنى إشارة إلى أولاد آخرين بل تحدث فقط عن شقيقاته وصديقاتهن . وإننا لنعلم من خبراتنا فى هذا الميدان أن الذكور الذين لا تحوى بيئتهم سوى عنصر الإناث تتبلور لديهم صفات الأنثية وهذه حقيقة لا يمكن أن نخطئها فى حالة هذا الولد ، ونحن لا نكتفى فى إدراكنا هذا بأقواله هو أو أمه بل بالاتصال أيضاً بشخصيته بوجه عام مع الأستاذ المعالج . إن هذه الصبغة الأنثية على الأخص هى التى تثير حنق الأم وتسبب للولد الصراع عندما يحاول أن يثبت رجولته ، وهذا الصراع الذى يجد منفساً عنه تلك الثورات الانفعالية العنيفة وهذا يمكن أن نعتبره المحدد الثانى لسلوكه . هل نحن محقون فى هذا ؟ علينا هنا أيضاً أن نتلمس عند التحليل النفسى ما ينير لنا السبيل . إننا نعرف شيئاً عن التقمص ونعرف أنه نتيجة التعلق المبكر من الطفل بأبويه فى أغلب الأحيان ، وأن هذا التعلق إذا زادت درجته فإنه يؤدى إلى انحراف النمو أو الجناح .

ولكى نفهم هذا ، يجب أن ندرس النمو النفسى العادى . ولعل مما يسهل أمامنا العمل أن نتناول نمو الذكر فقط معتبرين أن الأنثى تشابهه .

إن الوالدين هما فى العادة أول من يدخل مجال الطفل وخبرته ، ولهذا تتجه نحوهما أولى أحاسيسه . ويلاحظ أنه فى أول الأمر تتجه مساعى الليبيدو نحو الأم والأب بطريقة متساوية وبمرور المدة تتزايد أحاسيسه نحو الأم . وبالرغم من أنه يستمر يحب أباه إلا أنه تنشأ مواقف تجعل الأب شخصية غير محبوبة . وحتى طفل الثالثة قد يتألم لما يبديه الأب من الحنان نحو الأم لدرجة أنه يود لو يتخلص منه ليحصل على عطف أمه وحبها كاملين . أما إحساساته نحو الأب فتختلف وتتجاذب فالحب فى بعض الأوقات يحل محله البغض طبعاً . ويصف التحليل النفسى هذه الحالة على أنها موقف متعارض نحو الأب . وكثيراً ما يخطئ الناس فهم الاسم الذى اختاره فرويد لهذه المرحلة من النمو . فهو يسميها المرحلة الأوديبية مشيراً بهذا إلى الأسطورة الكلاسيكية . ولعلك تذكر أن أوديبس تزوج أمه بعد قتله أباه ،

بالرغم من أنه لا الأم ولا الابن كانا يعرفان ما يربطهما من قرابة . ولقد رأينا أولئك الذين لا يريدون أن يفهموا طريقة التحليل النفسي في البحث يعترضون في ثورة وحنق على فكرة مقارنة علاقة أوديب وأمه وتلك التي تقوم بين طفل صغير وأمه . ولكننا سندلي إليك بالتفسير . إن الطفل الصغير لا يمكن أن يقتل أباه ، وهو بنفس الطريقة وعلى نفس مستوى عجزه لا يفكر مطلقاً في إقامة علاقات جنسية مع أمه . فجهازه التناسلي لم ينضج حتى الآن . وإذن فاصطلاح المرحلة الأوديبية يدل على نفس هذا الاتجاه مترجماً إلى الانفعالات التي تميز هذه المرحلة من النمو حيث الطفل لا يمكن أن يعتبر مسئولا . والحق أن كلمة جنسي من وجهة نظر التحليل النفسي قد اتخذت معنى أوسع وأعمق مما كان يحدث في الماضي . وباستمرار نمو الطفل يزداد تعارض هذا الإحساس السالب نحو الأب مع الأحاسيس الموجبة ولذا يكبت . وهكذا يصبح الموقف الأوديبي الحقيقي عقدة أوديب بكل ما ينتابها من أضواء وأصداء من اللاشعور . فإذا لم تحدث اضطرابات بعد هذا فإن عقدة أوديب تحل تقريباً عند ابتداء السنة السادسة . وهذا الحل يحدد زمن بدء التقمص في الوالدين . وواضح أن عقدة أوديب الموجبة تتكون عن طريق علاقة الحنان التي تربط الطفل بالأم بينما تتبلور العقدة السالبة من نفس العلاقة بالأب . وهكذا ينتج عن الأولى ميل إيجابي وآخر سلبي نحو الأم والأب على التوالي . كما ينتج عن الثانية ميل إيجابي وسلبي نحو الأم . وبعد هذا تتحد الأحاسيس الموجبة من هذين المصدرين وهي أحاسيس تتكون بالسالبة على درجات متفاوتة عند كل فرد لتكون التقمص في الأب والأم . وباستمرار نضوج هذه العملية ينتهي هذا التقمص بتمثيل وهضم تدريجي لمميزات الوالدين . فإذا لم يكن النمو عادياً طبيعياً أي إذا كان التقمص مع الأم أقوى بكثير كنتيجة لعوامل وراثية أو مكتسبة ، اكتسب الفرد صفات ومميزات أنثية ، وكلما ازدادت قوة التقمص مع الأب زاد تضاؤل تقمص الأب . وبالتالي تراجعت الاتجاهات المميزة للذكور وهكذا ينمو الولد ناقصاً عنصر الرجولة وبذا تبطؤ مراهقته على هذا الإحساس .

ولقد كانت هذه الحقيقة ذات أثر مدمر في حالة هذا الولد . فلقد مات أبوه بينما كان على وشك الانتهاء من المرحلة الدراسية في سن الرابعة عشر . ولكونه الطفل الأكبر والرجل الوحيد في العائلة فقد كان يواجهه عمل هام ، هو أن يتخذ مكان أبيه . ولو كان نموه طبيعياً لأمكنه أن يقوم بهذا العمل ولكن التقمص

فى الأب الذى وضعته الظروف على عاتقه فشل فى القيام بهذه المهمة مراراً وتكراراً فلقد قالت الأم إنه يحاول أن يسيطر على أخواته ومن الطبيعى ألا يحتملن هذا العنت ، وهو يتحدث أثناء هذا بحمق حتى أن شقيقاته يضحكن منه ، وهذا يدعوه للثورة والحنق فيهاجمهن كحيوان مفترس . ولقد صرح بنفسه فى انفعال واضح أن له شخصية وكرامة وأنه يجب أن يمنح حق الحديث والتصرف فى المنزل كما يصرح لأخواته . والواقع أن عجزه عن تعرف الرجال سبب لديه كل هذا الصراع . ولقد حاول أن يسيطر باستخدام العنف والشدة البهيمية . ولقد اعتبرته الشقيقات امرأة خائفة مرتعبة أكثر منه رجلا قوياً شديد البأس . ولذا سخروا منه حتى لقد كان يخرج عن طوره . إن لدينا الآن تفسيراً آخر لاعتدائه ، إن عجزه فى النجاح فى التقمص فى شخصية الأب هو السبب فى التقمص فى شخصية الأم .

ولكن هناك صراع آخر بعث لديه الاضطراب ، وساعد على وضع سلوكه فى قالب خاص ، ونعنى به اصطدام فلسفته الاجتماعية فى الحياة بآراء عائلته الكاثوليكية المتطرفة . وبالرغم من أنه كان يرفضها كلية بالنسبة لنفسه ، إلا أنه كان لا يجرؤ على معارضتها . وبدلا من هذا كان يلتزم جانب الصمت فلا يشير إلى الموضوع إطلاقاً حتى أن أمه كانت لا تعرف رأيه الحقيقى . إن هذا الصراع وجد منفذاً فى السلوك الاعتدائى . ونجده بعد حدوث نوبة الغضب يسلم طائعاً ليناً لسلطة أمه ، فيطيعها طاعة تامة . ولكن كان هناك شىء واحد يبدو فيه الثبات . ألا وهو رفضه أن يكون عاملا بسيطاً . وكان يعزز هذه المقاومة عزمه على أن يبين للفتاة التى يحبها أنه يستحق الكثير وأن له اعتباراً وشخصية محترمة . وهكذا نلاحظ الآن أن الكسل الذى دعى أيكهورن لعلاجه ليس فى الحق كسلا . إن خبرات الطفل المؤلمة ومعارضة عائلته قد وضعته فى موقف يبعث على اليأس . فإذا أمكن تغيير علاقته أمه وأخواته وإذا وجد عملا مناسباً فهناك احتمال كبير أن ينتج تحسناً كبيراً فى حالته .

لنبحث الآن طرق العلاج . يهمنا أولا أن نتأكد من تجنيب الولد أى فشل فى المستقبل من ناحية التقمص فى الأب . ولعل أسهل الطرق لتحقيق هذا أن اتخذ ايكهورن على عاتقه منصب الأب فى هذه العائلة بعض الوقت . فإذا أدرك الولد هذا انتهى بالنسبة إليه محاولة تمثيل هذا الدور . وبذا تنتهى إحدى المواقف التى تسبب له الصراع . وبعد هذا يمكن بمساعدته أن يضع علاقته مع أعضاء العائلة فى ضوء أحسن وأكثر تنسيقاً . ولكن أحسن من هذا لو أمكن تحويل

علاقتهم بالأستاذ ايكهورن كأب إلى الوضع الصحيح . وهكذا تنصلح علاقتهن بالولد ، لعلمهم بوجود أيكهورن وسيطرته التى يستمدها من الأب إذا احتاج الأمر . وبنفس الطريقة تشعر الأم المتعبة بكثير من الراحة ويقل قلقها وتلهفها فيصبح اتجاهها نحو ولدها أقرب للمنطق والصواب . هذا وصف سطحى لما يحدث عندما يتدخل المعالج ليأخذ دور الأب فى العائلة . وهذا التغير الخارجى هو كل ما نطمع فيه فى أول الأمر . وهكذا لم يذكر ايكهورن لهم غرضه ولكن المقابلة الأولى مهدت السبيل لخلق هذا الانتقال أو التحويل المطلوب transference والحق أن الولد استجاب بسرعة عند ما أحس أنه يتحدث إلى شخص يفهم صعوبة حالته وتعقدها . وكان من الضرورى فى حالة الأم أن تتاح لها الفرصة لتلقى عن نفسها العبء الثقيل بالكلام . وهكذا خرجت ولديها الشعور بأنها وجدت شخصاً يمكنه أن يساعدها ويريد ذلك . وبالتدريج أصبح من السهل إقناعها بترك فكرتها القائلة بإخراج الولد من المنزل ليبحث عن عمل كعامل بسيط ثم يمكن بعد ذلك تنظيم الأمر بحيث يعطى الولد ترخيصاً لمزاولة حرفة النجارة مع احتساب السنة التى قضاها فى التمرين . وقد بدأ يعمل بعد أسبوعين من مقابلته الأولى مع ايكهورن وكان عمله مرضياً إذ لم يبد عليه أى نزوع للكسل . كما حلت مشكلة الدين بفتح هذا الموضوع للكلام مع أمه وقد أكدت الأم أنها ستمنح ابنها حرية تامة فى هذا الميدان . وبعد هذا لم يعد الولد بحاجة إلى الانضمام إلى عائلته فى تلك الاجتماعات إلا إذا عرضت له الفرصة لمقابلة البنت التى ذكرها . . .

(يتبع) ماهر كامل

السن والجريمة

للسن بدون شك أثر فى رفع نسبة الجرائم أو خفضها وفي تعيين نوع الجريمة المرتكبة ، أى ما إذا كانت تطلب جرأة وعنف وقوة بدنية أو تنفع معها أساليب المكر والاحتيال . ويتضح من الإحصائيات التى عملت فى الولايات المتحدة لنزلاء السجون فى عام ١٩٤٢ أن أكبر عدد من الجرائم يرتكبها أشخاص تتراوح سنهم